الهولوكوست المعكوس

الفصل الثاني

الشهود يتراجعون...
والإسرائيليون يهددون

◆◆◆

obeikandl.com

obeikandl.com

مدخل

عندما التقى جون ساك بلولا بوتاك لأول مرة عام ١٩٨٦ كانت امرأة في السادسة والستين مازالت تحتفظ ببقايا جمالها وفتنتها، أنيقة في ملبسها، تضع أحمر شفاه بلون المرجان وكحل أسود على عينيها، لكنها كانت أيضا تحتفظ بأسرار تثير شهيته الصحفية، ونهمه لمعرفة الحقيقة عن قصة بدت له غريبة في محتواها، يهود يعتقلون ألمانا مدنيين بالآلاف في معسكرات اعتقال ويمارسون الانتقام من الهولوكست.. أمضى ساك عامين ونصف العام في سماع شهادة لولا، وبعد أن أصبح بينهما مشروعا لإنتاج فيلم وكتاب عن القصة فوجئ برفضها.. وفوجئ أيضا بنوع من الحصار حوله، لكنه لم يتراجع عن مشروع الكتاب بعد أن تعاقد مع ناشر، وواصل بحثه بعيدا عن لولا، ليكتشف قصصا بشعة من التعذيب والقتل في الجزء الذي احتله الروس من الرايخ الثالث وأسندوا إدارته للبولنديين وانضم فيه كثير من اليهود للعمل داخل جهاز الأمن البولندي.

* الشاهدة الأولى على الهولوكست المعكوس تتراجع عن الاتفاق على إصدار الكتاب وتهدد المؤلف بدفع الثمن غاليا إذا نشره

* الرجل الثاني في ترتيب القيادة داخل معتقل جلايفتس يرفض تقديم شهادته

* حراس السجن السابقون بدؤوا يحرضون الآخرين على عدم الحديث مع جون ساك وبلغ الأمر حد التهديد بالقتل وإبلاغ المافيا الإسرائيلية عنه

* في مبني الأرشيف الاتحادي الألماني وجد ساك ٤٠ ألف شهادة عما حدث للألمان من طرد وتعذيب وقتل في بولندا زمن الحرب العالمية الثانية

* جون ساك زار معتقل جلايفتس وتجول في زنازينه وممراته وتصفح سجلاته

ووجد الوثيقة الرسمية الخاصة بتعيين لولا قائدة للسجن

* عندما وجد ساك طلبا بخط يد لولا «من أجل أن تتعاون ضد الألمان» تذكر ما قالته له عن أنها ذهبت إلى الحكومة البولندية وقالت بوضوح «أريد الانتقام»؟

* من أجل التحقق من صحة وقائع «الهولوكست المعكوس» سافر جون ساك إلى ألمانيا ١١ مرة وإلى بولندا ثلاث مرات وإلى فرنسا والنمسا وإسرائيل وكندا وأنحاء مختلفة من الولايات المتحدة

* من خلال مترجمين تحدث المحقق الأمريكي إلى ٢٠٠ شخص باللغات البولندية والروسية والدنماركية والسويدية والألمانية والهولندية والفرنسية والإسبانية واليديشية والعبرية وجمع من مقابلاته ٣٠٠ ساعة مسجلة على شرائط كاسيت.

* لولا كانت في الثامنة عشرة من عمرها حين انتزع منها طفلها الرضيع وقتلت أمها وشقيقها وشقيقتها وأبناؤهم جميعا ثم وضعت في معسكر اعتقال ألماني وحين هربت قررت الانتقام

* في الجزء الذي احتله الروس من الرايخ الثالث وأسندوا إدارته للبولنديين انضم كثير من اليهود لجهاز الأمن البولندي في سجون مخصصة للألمان

* قائدة معتقل جلايفتس توقفت عن تعذيب الألمان خوفا من الملاحقة القضائية وأمرت الحراس بتغيير معاملتهم للمعتقلين

* الشاهدة الأولى قالت نصف الحقيقة.. ادعت أن المعتقل كان به عشرون جنديا ألمانيا.. لكن الحقيقة الكاملة أن المعسكر كان به ألف مدني ألماني أيضا

* من بين السجناء صبي عمره ١٤ عاما سكب المسئولون في السجن الكيروسين على شعره وأشعلوا فيه النار فأصيب بالجنون

* أحوال السجناء في المعسكر الذي كانت لولا قائدته كانت أسوأ من المعسكر الألماني الذي هربت منه فلم يكن مسموحا للألمان باغتصاب المعتقلين بينما كان

مسموحا به في سجن لولا

* إحدى الضحايا لم تكن حتى ألمانية بل طالبة طب بولندية في العشرين من عمرها عذبها الحراس حتى تحولت بشرتها البيضاء إلى لون أزرق داكن وعندما عادت إلى زنزانتها سألها زملاؤها عن ذلك الرداء الأزرق الذي ترتديه؟

التهديدات

بعد أن رفضت لولا بوتوك عبر الهاتف نشر الكتاب، ذهب الصحفي جون ساك إلى شقتها في هوليوود، فوجد أجواء مختلفة تماما عن أي لقاء سابق بينهما، وحالة من الصراخ قد انتابت الجميع، وفوجئ بلولا تقول له «الطريقة التي تكتب بها لا تعجبني، أنت تكتب كصحفي، وإذا ألفت هذا الكتاب سأمنعك من نشره!»

أما ابنتها فرجته أن يتخلى عن فكرة الكتاب، وهددته شقيقتها الصغري والتي كانت تعمل محامية بأنهم سيقاضونه على الفور وأنه سيدفع الثمن غاليا لو شرع في نشر الكتاب!، وأكدت لولا أنها ستذهب إلى المحكمة لمقاضاته، ثم عرضت عليه ابنتها الكبرى أن يوقع على تنازل عن العقد، وأن يتركهم في حالهم ويبتعد نهائيا عن حياتهم.

وغادر المكان، وحاول الاتصال بلولا هاتفيا بعدها لكنها لم ترد، وبعث إليها بخطابات أكثر من مرة، فكانت تعود خطاباته دون فتحها وعليها عبارة «رفضت الاستلام».

ولم يقتصر التراجع على لولا، فقد رفض موشيه اليهودي أيضا –وكان الثاني في ترتيب القيادة داخل المعتقل بعد لولا- الحديث مع الكاتب، وقالت زوجته عبر الهاتف: «لن نعطيك الإذن لتأليف ذلك الكتاب» وعندما قال لها إنه لا يحتاج إلى إذن منها فلديه إذن من دستور الولايات المتحدة، أغلقت الخط.

وأنكرت جاديزا –إحدى الحارسات اليهوديات اللاتي كن يعملن تحت إمرة

لولا- أنها كانت تعمل هناك، ثم تراجعت واعترفت بعملها في المعتقل، لكنها رفضت الحديث إلى ساك عن ذلك التاريخ، وفي حوار استغرق ساعة على الهاتف مع جون ساك، نفت تماما إن كانت تعرف أي شيء عن المعتقل وما جرى فيه.

وبدأ ساك يدرك أنه يتعرض لحصار، من تراجعوا عن موافقتهم على الحديث معه والإدلاء بشهاداتهم بدأوا يحرضون آخرين على عدم الحديث معه، وبدأ بعضهم يهددونه بأنهم سيقاضونه، ويدمرونه ووصل الأمر إلى حد التهديد بالقتل، أحدهم أخذ رخصة قيادة السيارة الخاصة بساك والتقط منها عنوانه وقال له «إذا كتبت عني، سأبلغ عنك المافيا الإسرائيلية».

ورغم ذلك رفض ساك أن يتراجع عن مشروع الكتاب، خاصة وأنه ملتزم بعقد مع الناشر هنري هولت.

رحلة البحث

في أبريل ١٩٨٩ سافر ساك إلى ألمانيا، وذهب إلى قلعة أعلى تلة تطل على نهر الراين حيث مبني الأرشيف الاتحادي الألماني (دار المحفوظات). حيث يحتفظون بـ ٤٠ ألف شهادة من ألمان كانوا يعيشون زمن الحرب العالمية الثانية فيما يعتبر الآن أراضي بولندية، ومن بين تلك الشهادات عثر ساك على خمس شهادات لألمان كانوا في سجن لولا.

وذهب ساك إلى مكان آخر في ألمانيا: قاعة كبيرة ذات جدران حجرية تكاد تنتمي في أجوائها إلى العصور الوسطى، مخصصة للم شمل ألف شخص من جلايفتس، يجلسون حول مناضد حقيرة يأكلون السجق والمخلل، ويضحكون ويغنون، وراح ساك يتنقل بينهم يسأل إن «كان أحدهم قد دخل نزيلا إلى سجن جلايفتس يوما ما؟» وفي نهاية المطاف عثر بالفعل على خمسة من السجناء السابقين في معتقل لولا.

واستقل القطار إلى جلايفتس التي تسمى الآن جليفتش وتقع ضمن الأراضي

البولندية، وأثناء مروره إلى الشطر الشيوعي في شرق برلين تم اعتقاله، واحتجز في غرفة صغيرة، لأنه كان يحمل في حقيبته نسخة من كتاب «طرد السكان الألمان من المناطق الواقعة شرق خط أودر - نيسه» الذي نشرته حكومة ألمانيا الغربية في الخمسينات، وبعد ساعات سمح له بالمغادرة والاتجاه إلى جلايفتس في الرابعة صباحا، كانت وقتها مدينة يقطنها نحو ٢٠٠ ألف شخص لا يتحدث أحدهم الإنجليزية، وساك لا يجيد اللغة البولندية، لكنه وجد ثلاثة من حراس لولا يتذكرون جيدا ما حدث في المعتقل.

في ١٩٨٩ كانت بولندا ما تزال دولة شيوعية، لكنه تمكن من الدخول إلى سجن لولا والتجول في زنازينه وممراته، وتصفح سجلاته، وعندما وجد طلب لولا بخط يدها: «أريد ان أتعاون ضد الألمان الذين قمعونا» تذكر ما قالته له عن أنها ذهبت إلى الحكومة البولندية وقالت بوضوح «أريد الانتقام»؟، وهناك عثر ساك أيضا على الوثيقة الرسمية الخاصة بتعيين لولا قائدة لسجن جلايفتس.

بعد ذلك سافر إلى ألمانيا ١١ مرة، وإلى بولندا ثلاث مرات، وإلى فرنسا والنمسا وإسرائيل وكندا وإلى أنحاء مختلفة من الولايات المتحدة، ومن خلال مترجمين تحدث إلى ٢٠٠ شخص باللغات البولندية والروسية والدنماركية والسويدية والألمانية والهولندية والفرنسية والإسبانية واليديشية والعبرية، وجمع من تلك المقابلات ٣٠٠ ساعة مسجلة على شرائط كاسيت، ورأى آلاف الوثائق.

فماذا أدرك من كل ذلك؟ أدرك أن لولا كانت تقول الحقيقة، وكانت قائد معسكر جلايفتس، وكان هدفها الواضح هو الانتقام، وأنها حققت هدفها بملاحقة وتعذيب الألمان حولها، لكنها توقفت بعد ذلك تماما حسبما قالت له، وقد تأكد ساك من ذلك، ففي أحد الأيام من عام ١٩٨٩ وبينما كان يتناول الغداء مع أحد حراسها السابقين في فندق ليزني Hotel Leszny، قال له الحارس دون أن يسأله وبشكل

عابر: «هل تعرف أن لولا توقفت عن تعذيب الألمان، وقالت لنا توقفوا عن التعذيب! يجب أن نظهر للألمان أننا لسنا مثلهم».

وقال بعض الحراس السابقين في سجن لولا إنها بعد أن امتنعت عن تعذيب الألمان خوفا من الملاحقة القضائية كانت أحيانا تقوم بتهريب الخبز من منزلها للسجناء، وكان ذلك مخاطرة منها، فلو انكشف أمرها كانت ستوضع في نفس السجن.

أمام نادي الصحافة

أمام جمهور نادي الصحافة الدولي قال ساك إن «لولا قالت الحقيقة.. لكنها لم تقل كل الحقيقة»، فقد علم من سجناء في معسكر لولا أن «المعسكر كان به عشرين جنديا ألمانيا.. ولكن الحقيقة أن المعسكر كان به أيضا ألف مدني ألماني».

وقال ساك بناء على الوثائق والشهادات التي جمعها إن «السجناء تعرضوا للتعذيب، وكان بينهم صبي عمره ١٤ عاما اعتقل لأنه كان يرتدي زي «الكشافة»، حيث صب المسئولون في السجن الكيروسين على شعره وأشعلوا فيه النار فأصيب الصبي بالجنون.. والألمان الذين ماتوا في المعسكر أحرقوا في مقبرة جماعية كجبانة كاثوليكية».

يضيف ساك «الحقيقة أن أحوال السجناء في المعسكر الذي كانت لولا مأمورة فيه كانت أسوأ من أحوال السجناء في معسكر أوشفيتس الألماني الذي كانت فيه لولا سجينة ثم هربت.. على سبيل المثال.. لم يكن مسموحا للسجانين في معسكر أوشفيتس باغتصاب المعتقلين بينما كان ذلك مسموحا به في سجن لولا».

وقال ساك أيضا إن «السجون كانت تحت إشراف جهاز أمن الدولة البولندي الذي كان يسميه الألمان الجستابو البولندي (لما يرتكبه من جرائم وممارسات تشبه جرائم وممارسات الجستابو الألماني)» وكان «معظم المسئولين في جهاز أمن الدولة

البولندي في مدينة كاتوفيتش يهودا.. ٧٥ بالمائة منهم يهود و٢٥ بالمائة كاثوليك».

يذكر الكاتب أن لولا كانت في الثامنة عشرة من عمرها عندما بدأ الغزو النازي لبلدها، ووضعت على متن قطار متوجه إلى بلدة أوسفيتشيم التي تعرف حاليا باسم أوشفيتس، وانتزع الألمان طفلها الرضيع الذي لم يتجاوز عمره عاما واحدا من بين ذراعيها، ولم تره مرة أخرى، ولم يتم إرسال لولا لقتلها في غرف الغاز (السيانيد)، لكن أمها قتلت وقتل شقيقها وشقيقتها وأبناؤهم جميعا ضمن مجموعة من الأفراد عددهم أربعة عشر شخصا.

ورغم التشكيك بوجود غرف الغاز في أوشفيتس إلا أن الكاتب يؤكد وجودها بل ويذكر أن آخر كلمات شقيق لولا قبل إعدامه كانت «انتقمي.. انتقمي»، لفظها شقيق لولا بلغة اليهود الأشكيناز في ذلك الوقت.

في يناير ١٩٤٥ نجحت لولا في الهرب ولكنها كانت قد فقدت كثيرا من وزنها، حتى وصلت إلى ٣٠ كيلوجراما فقط، أصبحت عيناها غائرتين، وتساقط شعرها، وأصيبت ببعض الكسور في ظهرها، وتشوهت يداها.. لحظة هروبها كانت ترتدي في قدميها فردتي حذاء شمال! في ذلك الوقت اعتقدت لولا أنها فقدت كل من كانت تحبهم، وكانت تستشيط غضبا وحقدا تجاه الألمان، وتريد أن يتحول غضبها إلى نار متأججة، تحرق الألمان جميعا، وذهبت إلى أحد أصدقاء طفولتها، وكان مسئولا في الحكومة البولندية، وأخبرته أنها تريد الانتقام من الألمان.

وبعد شهرين من ذلك اللقاء كانت الحرب مازالت مستمرة، فذهبت لولا إلى ألمانيا، وتحديدا إلى الجزء الذي احتله الروس، وأسندوا إدارته إلى البولنديين، وارتدت لولا الزي العسكري بلونه الأخضر، وأزراره النحاسية اللامعة، يزين كتفيها نجوم عسكرية، وكانت تحمل مسدسا ألمانيا من نوع لوجر (نصف آلي)، وأصبحت تعمل لحساب الحكومة البولندية كقائدة لسجن مخصص للألمان،

وجاءتها الفرصة للانتقام مما اقترفوه في حقها وحق أسرتها.

وبما أن لولا يهودية فقد درست التوراة التي تحث المؤمنين بها على «ألا ينتقموا من أحد»، لكنها عصت أمر التوراة، ويتساءل الكاتب عما إذا كان هناك أحد يمكن أن يلومها أو لا يتفهم دوافعها، أو حتى لا يشعر بالشفقة تجاهها.

عندما التقى جون ساك مع لولا بوتوك في أحد مطاعم هوليوود لأول مرة، كانت حسب وصفه لها امرأة جميلة تتكلم خمس لغات بطلاقة، وكان عمرها حينئذ ٦٦ عاما، وخلال المقابلة بدأت لولا تحكي قصتها.

في نهاية الحرب العالمية الثانية كانت لولا تدير معتقلا في جلايفتس الواقعة حاليا ضمن الأراضي البولندية، وتقول في شهادتها للكاتب جون ساك إن المعتقلين كانوا جنودا ألمان وأن بعضهم كانوا نازيين، وتابعت في شهادتها أنها كانت تبحث عن ضابط ألماني يدعى «مينجل» قال لها ذات يوم «اتجهي إلى اليمين: سوف تعيشين» ثم خاطب أمها قائلا «وأنت إلى اليسار.. لأنك ستموتين»، وتمنت لولا أن تلقاه ثانية، ولم تكن تعرف ما يمكن أن تفعله حينئذ، لكنها بالتأكيد سوف تفعل الكثير، وذات يوم رأت بين المسجونين أحد العاملين السابقين في «الجستابو» الألماني (المخابرات الألمانية في عهد هتلر)، كان في الأربعين من عمره، وكان ذراعه يحمل وشما عبارة عن حرف يدل على فصيلة دمه، وكان جميع أفراد الجستابو يحملون مثل تلك الحروف على هيئة وشم، وما إن رأته حتى فقدت أعصابها، ثم صفعته، وصرخت في وجهه: «كم عدد اليهود الذين قتلتهم؟»، وركع الرجل على الأرض وهو يتوسل إليها، يطلب منها الرحمة، وهي تواصل ركله بقدميها.

روت لولا تلك القصة بنفسها، لكن الكاتب يستدرك أن تلك القصة لن يحب سماعها أحد، ولا حتى صاحبتها لولا، لذلك لم يكن يريد أن يذكرها، ويضيف أن لولا نفسها أخبرته أنه لو كانت والدتها حية لما أحبت ذلك، فقد اعتادت أن تقرأ

قول التوراة «عندما تكره.. تضر نفسك فقط وتضع حجابا على قلبك»، وبعد ذلك بشهور كان أحد حراس المعتقل وهو يهودي يضرب سجينا ألمانيا بالسوط، وينعته بأقذع الشتائم، لكن لولا أوقفت تعذيب الألماني، وسألت الحارس لماذا يعذبه؟ فأجاب بأنه يحتقر الألمان، فأشارت إلى أنه إذا كان يحتقر الألمان فيجب ألا يكون مثلهم، وبالنسبة إليها كان ذلك الحارس اليهودي لا يختلف كثيرا عن الحراس النازيين.

في ذلك الوقت لم تهتم لولا بالألمان السجناء، لكن اهتمامها كان يتركز على الحارس اليهودي، لأنه وبعد سنوات سيلقبه السجناء الألمان بالخنزير والكلب، وتدريجيا سيتحول إلى وحش آدمي، فيكون النازيون -كما كانت ترى لولا- قد ربحوا، لأنهم جعلوه مثلهم، فدعت جميع الحراس إلى مكتبها، وأبلغتهم بأنه من الآن فصاعدا سيتم معاملة الألمان مثل البشر، ومنذ ذلك الحين التزمت بهذا السلوك.

يذكر الكاتب تفاصيل بشعة عن التعذيب في السجن الذي تولت لولا مسئوليته... إحدى الضحايا عام ١٩٤٥ -لم تكن حتى ألمانية بل كانت طالبة طب بولندية في العشرين من عمرها- استمر الحراس في تعذيبها حتى تحولت بشرتها البيضاء إلى لون أزرق داكن، وعندما أرسلوها إلى زنزانتها سألتها زميلاتها عن ذلك الرداء الأزرق الذي ترتديه؟ قبل أن يدركن أن الرداء هو لون بشرتها بعد الضرب والتعذيب.

من جليفيتش تحرك جون ساك في اتجاه الغرب إلى بريسلاو ومن هناك إلى براغ حيث قال له أحد الحراس السابقين وهو يصف كيف اعتقل الألمان المتبقين بعد تقدم قوات الحلفاء «عدد الألمان الذين ماتوا في المعسكرات يفوق عدد من مات منهم في قصف دريسدن أو عدد من مات من اليابانيين في هيروشيما».. ويقول أحد

الألمان الناجين من المحرقة اليهودية في شهادته لجون ساك «على الرغم من أن عدد من مات من الألمان أقل بكثير من اليهود الذين ماتوا في المحرقة، إلا أن ما حدث لهم كان محرقة ثانية».

جون ساك يتحدث عن كتابه العين بالعين أمام المؤتمر الثالث عشر لمعهد المراجعة التاريخية الأمريكي عام ٢٠٠٠

ليست صورة لضحايا يهود من الهولوكست لكنها لأسرى حرب ألمان قتلوا في معسكرات اعتقال بولندية يديرها يهود

صورة آخر يهودي في فينيتسا وغيرها كانت كفيلة بتفجير
رغبة عارمة لدى اليهود من أجل الانتقام من النازيين

الأرشيف الألماني في كوبلنز

المدخل الرئيسي لمعسكرات الاعتقال في أوشيفتس كما يبدو الآن